إلى الرفيق الأعلى

دنو أجل الرسول

كان كل شيء بعد حجة الوداع يوحى بأن أجل رسول الله ﷺ قد دنا، وأن حياته وشيكة الزوال، وكان صلى الله عليه وسلم يحس ذلك، فكان كلامه فى خطبته يشير إلى ذلك فى كثير من عباراته. وقد أدرك عمر بن الخطاب هذه الإشارة من قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممْتُ عليْكُم نعْمَتى ورضِيتُ لَكمُ الإسْلامَ دِينًا﴾، فبكى حين نزلت هذه الآية، فإنه ليس بعد الكمال والتمام شيء يراد. وما كانت مهمة الرسول ﷺ فى هذه الدنيا إلا أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس، فأما إذ بُلغت الرسالة، وأُديت الأمانة، وكمل الدين وتمت به نعمة الله على عباده، فقد انتهت المهمة وتحقق الغرض، وأصبح رحيل رسول الله ﷺ عن هذه الدنيا أمرًا مترقَّب الوقوع فى كل وقت.

إعداد جيش أسامة بن زيد

وقد صدَّقت الأيام هذه الحقيقة، فإن رسول الله ﷺ لم يمكث بعد نزول هذه الآية سوى واحد وثمانين يومًا، ولم ينزل عليه بعدها حلال ولا حرام؛ وقد مرت هذه الفترة هادئة، لم يشغله فيها من أمور المسلمين أمر ذو بال، إلا ما كان من إعداد جيش أسامة ليسير إلى الشام. فقد أمر صلى الله عليه وسلم فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة (مايو سنة ٦٣٢) بإعداد جيش كبير، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك فأوْطِئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش. فأغِرْ صباحًا على أهل «أُبْنَى»[1]، وحرِّقْ عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار. فإن أظفرك الله بهم فأقِلَّ اللُّبْث فيهم. وخذ الأدلاَّء وقدم العيون والطلائع معك»... وكان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار فى جيش أسامة، ولم يكن أسامة قد جاوز السابعة عشرة.

ويذهب رواة السيرة القدماء، وبعض كتابها من المحدثين، إلى أن السبب فى إعداد هذا الجيش هو الثأر لقتل زيد وأصحابه فى واقعة مؤتة، ولكن الدكتور هيكل فى كتابه «حياة

(١) أبنى: محل قريب من مؤتة على حدود الشام.

محمد» يذهب إلى سبب أشمل من هذا، فيقول: "إن رسول الله كان يحسُب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، ويخشى أن تثور الذكريات بُحماة المسيحية من الروم، فيعلنوا الحرب على من طاردوا النصرانية فى بلاد العرب". ويذهب الأستاذ محمد الغزالى فى كتابه «فقه السيرة» إلى سبب لا يتعارض مع اتجاه الدكتور هيكل، ولكنه يعتبر سببًا مباشرًا لإعداد هذا الجيش، فيقول: "إن فَرْوَة بن عمرو الجذامى كان واليًا من قبل الروم على «مَعَان»[1] وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام وبعث إلى النبى ﷺ يخبره بذلك. وغضب الرومان على فروة فجردوا عليه حملة جاءت به، وألقى فى السجن حتى صدر الحكم بقتله. فضرب عنقه على ماء لهم يقال له «عفراء» بفلسطين، وتُرِك هناك مصلوبًا ليرهب غيره ممن يريد أن يسلك مسلكه. وقيل: إنه لما قدم إلى القتل قال:

بَلِّغْ سَرَاة المسلمين بأننى ... سِلْمٌ لربى أعظمى ودمائى

فأعد رسول الله ﷺ هذا الجيش، وأمّر عليه أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ الخيل تُخوم «البلقاء والداروم[1]» من أرض

(١) هذه كلها مدن فى أطراف الشام من ناحية الحجاز.

فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود".

وسواء أكان السبب المباشر لإعداد هذا الجيش هو فكرة الثأر لمقتل زيد وأصحابه، أم كان هو قتل فروة بن عمرو بعد إسلامه، فإن الأمر فى مرماه لا يخرج عن العمل على توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، بإرهاب الروم من ناحية، وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود من ناحية أخرى.

مرض رسول الله

وعلى كل حال فإن هذا الجيش لم يُقَدَّر له الخروج فى حياة النبى، صلى الله عليه وسلم، فإنه بعد أن أمر بإعداد هذا الجيش وأخذ الجيش يتأهب للخروج، مرض النبى، صلى الله عليه وسلم، وجعل المرض يشتد به يومًا بعد يوم حتى شُغل الناس بأمره عن أمر الجيش.

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قد استبطأ الناس فى بعث أسامة وهو فى وجعه، وبلغه أن ناسًا تكلموا فى شأن أسامة وقالوا: "أمَّر غُلَامًا حدثًا على جِلَّة[1] المهاجرين والأنصار".. فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، فحَمِد

---

(١) جلتهم: كبارهم.

الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أيها الناس، أنْفِذوا بَعْث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا بها»! ثم نزل صلى الله عليه وسلم.. وجَدَّ الناس فى جَهازهم، فخرج أسامة وخرج جيشه معه، حتى نزل بالجُرْف على فرسخ من المدينة، فعسكر هناك، وجعل الناسُ يتلاحقون به حتى تَتَامُّوا[1]. ولكن رسول الله ﷺ ثَقُل واشتد به المرض، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسوله، صلى الله عليه وسلم.

عن أسامة بن زيد قال: "لما ثقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هَبطتُ وهبط الناس معى إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد أُصْمِتَ لا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ، فأعرِفُ أنه يدعو لى".

تمريضه فى بيت عائشة

واستأذن رسول الله ﷺ أزواجه فى أن يمرَّض فى بيت عائشة، فأذِنَّ له، فخرج يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب، عاصبًا رأسه وقدماه تُخطَّان فى الأرض، حتى دخل بيت عائشة، فظل يمرَّض به حتى انتقل إلى جوار ربه.

---

(١) تتاموا: تكاملوا.

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يصلى بالمسلمين كلما حضرت الصلاة، وأن يعظهم ويَعْهَد إليهم كلما وجد من نفسه قوة. فحضرت الصلاة ذات يوم وقد غُمِر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال «هَرِيقُوا[1] علىَّ سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعْهَد إليهم».

قالت عائشة: فأقعدناه فى مِخْضَب[2] لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: «حَسْبُكم، حَسْبُكم[3]»!

ثم خرج رسول الله ﷺ عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، فكان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أُحد فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله خَيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله».. ففهمها أبو بكر وعرف أنه يريد نفسه، فبكى وقال: "بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا".. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «على رِسْلك يا أبا بكر، لا تبك».. ثم قال: «أيها الناس، إن أمَنَّ الناس[4] علىّ فى صحبته وماله أبو بكر، ولو

---

(١) هراق الماء: صبه.

(٢) المخضب: إناء واسع كالطست.

(٣) حسبكم: كفى كفى.

(٤) أمنّ الناس: أكثرهم فضلا.

كنت متخذًا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا.. ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده».

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يصلى بالناس حتى غلبه المرض وأثقله عن الخروج، فقال: «مروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس».. فجعل أبو بكر يصلى بالناس حتى صلى بهم سبع عشرة مرة. وكان صلى الله عليه وسلم يحلو له أن ينظر إلى الناس وهم يصلون خلف أبى بكر، فيسره ما يراه من اجتماعهم وألفتهم، حتى كان هذا المنظر الحبيب إلى نفسه آخر منظر وقعت عليه عينه.

انتعاش الرسول يوم وفاته

ذكر ابن إسحاق فى رواية له عن أنس بن مالك، أنه لما كان يوم الاثنين الذى قُبِض[1] فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فَرُفِعَ له الستر وفتح الباب، فقام على باب عائشة ينظر إلى المسلمين وهم يصلون. فكاد المسلمون يَفْتَتِنُون فى صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ حين رأوه، وتفرَّجوا[2]؛ فأشار إليهم أن: «اثبتُوا فى

(١) قبض: مات.

(٢) تفرجوا: أفسحوا له.

صلاتكم».. وتبسم صلى الله عليه وسلم سرورًا بما رأى من هيئتهم فى صلاتهم، ثم رجع.. وانصرف الناس وهم يرون رسول الله قد خَفَّ من وجعه، ورجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح من ضواحى المدينة.

وذكر فى رواية أخرى عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مُلَيكة، أن رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم دخل المسجد حتى جلس إلى جنب أبى بكر، فصلى عن يمينه قاعدًا. فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس فكلمهم، رافعًا صوته حتى خرج من باب المسجد.. فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: "يا نبى الله، إنى أراك قد أصبحت - بنعمة من الله وفضل - كما نحب". واستأذنه فى أن يزور أهله بالسُّنْح، حين رأى دلائل العافية بادية عليه.

وسواء أكانت الرواية الصحيحة هذه أم تلك، فإن رسول الله ﷺ كان بادى النشاط والصحة فى ذلك الصباح، حتى ظن الناس أنه قد أبَلَّ من مرضه، وانصرفوا وهم مطمئنون إلى سلامته، ولم يدُرْ بخَلَد أحد أنها كانت صحوة الموت، ووَمضَة السراج حين يريد أن ينطفئ.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن عائشة قالت: "رجع إلَيَّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر، فنظر رسول الله إليه فى يده نظرًا عرفت أنه يريده. فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم». فأخذته فضغته حتى لَيَّنته، ثم أعطيته إياه، فاستَنَّ به كأشدِّ ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه. ووجدت رسول الله ﷺ يَثْقُل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول: «بل الرَّفيقَ الأعلى من الجنة».. ! فقلت: خُيِّرتَ فاخترت، والذى بعثك بالحق!.. وقُبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم".

كان موته حدثًا أذهل العقول

وكان موت رسول الله ﷺ حدثًا أذهل العقول، وفَزَّع القلوب، وروَّع الأنفس، وبدا الناس فى شأنه حيارى حتى كأنه شيء لا يمكن أن يكون، فقد كان صلى الله عليه وسلم ملء القلوب والنفوس والأبصار والأسماع، وملء الدنيا بأسرها.. فلما مات كان الفراغ الذى تركه شيئًا لا يتصوره عقل ولا يُحدّه

إدراك، وكان وقعه على الناس أشد من أن يُحتمَل، حتى كان من أصحاب رسول الله ﷺ من أُقْعِد[1]، ومن أُخْرِس عن الكلام فما تكلم إلا من الغد، لما راعه من موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وحتى قام عمر بن الخطاب ثائرًا فى الناس، يتوعد من يقول: إن رسول الله قد مات!

ثورة عمر على الناس

عن أبى هريرة قال: «لما توفى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قام عمر بن الخطاب فقال: "إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد توفى.. وإن رسول الله - والله - ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات.. والله لَيَرْجِعَنَّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطَّعنّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه ماتَ"..!

أبو بكر يرد الناس إلى صوابهم

(قال): وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل

---

(١) أقعد: عجز عن الحركة.

على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، ورسول الله مُسَجًّى فى ناحية البيت، عليه بُرْدُ حِبَرة[1]، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبّله ثم قال: "بأبى أنت وأمى! أما المَوْتة التى كتب الله عليك فقد ذقتَها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.. !" ثم رد البُرْد على وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: "على رسلك يا عمر، أنْصِتْ.." فأبى ألا أن يتكلم. فلما رآه لا يُنصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت".. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ؛ أفإنْ مات أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ ومنْ ينْقلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلنْ يَضرَّ الله شيْئا وسيجْزِى الله الشَّاكِرِينَ﴾[2].

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبى بكر فإنها هى فى أفواههم..

---

(١) برد حبرة: نوع من ثياب اليمن.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

قال أبو هريرة : قال عمر : "فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت[1]، حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملني رجلاى، وعرفت أن رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قد مات".

هكذا ذهب الحادث بألباب الناس حتى أذهلهم، وحتى ذهب الظن بعمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ لم يمت، وأنه سيبق فى أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها. ولكن كلمة أبى بكر ردت عمر إلى صوابه، وكشفت للناس عن حقيقة ماكانوا ليجهلوها، لولا أن عِظَم المصيبة بفقد رسول الله أذهلهم، حتى نسُوا أن رسول الله ﷺ بشرٌ من الناس، يجوز عليه ما يجوز على الناس من الحياة والموت، وأنه، صلى الله عليه وسلم، لم يمت حتى أدى رسالة ربه خير أداء، وبينها أحسن بيان، وترك أمته على المحجَّة البيضاء[2] ليلُها كنهارها.

تجهيز الرسول والصلاة عليه

وكانت وفاته، صلى الله عليه وسلم، فى يوم الاثنين، حين اشتد الضُّحى، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول،

---

(١) عقرت : دهشت وتحيرت.

(٢) المحجة البضاء : الطريق البين الواضح.

من السنة الحادية عشرة (٩يونية سنة ٦٣٢)، وعمره ثلاث وستون سنة.. وغُسِّل، صلى الله عليه وسلم، فى يوم الثلاثاء، وكُفِّن فى ثلاثة أثواب: ثوبين صُحَارِيَّين، وبُرْدٍ حِبَرة أدرج فيه إدراجًا.

فلما فُرِغ من جَهازه، صلى الله عليه وسلم، وُضع على سريره، ثم دخل الناس يصلون عليه أرْسالا[1].. دخل الرجال فصلُّوْا عليه صفًّا صفًّا، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان.

ولما أرادوا دفنه، صلى الله عليه وسلم، قال بعض المسلمين: ندفنه فى مسجده؛ وقال بعض المسلمين: ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ماقُبض نبى إلا دفن حيث قبض».. فَرُفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه، فحُفِرَ له تحته، ثم دُفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء، فى بيت عائشة، رضى الله عنها. وهو المكان الذى أقيم عليه ضريحه الطاهر، ورفعت عليه القبة الخضراء فى مسجده الشريف بالمدينة المنورة، طيَّب الله ثَرَاها، وعطَّر ذكرها وذكراها!!.

---

(١) أرسالا: جماعات يتلو بعضهم بعضا.

ذكر البَيْهقى عن الواقدى، عن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى، قال: «وجدت هذا فى صحيفة بخط أبى.. لما كُفن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووضع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته!».. ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، فسلموا كما سلم أبو بكر وعمر، وصفُّوا صفوفًا لا يَؤُمهم عليه أحد. فقال أبو بكر وعمر وهما فى الصف الأول حيالَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنا نشهد أنه قد بلَّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله به دينه، وتمت كلماته، فآمن به وحده لا شريك له فاجعلنا يا إلٰهنا ممن يتبع القول الذى أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى يعرفنا وتُعرِّفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيما!».. فيقول الناس آمين، آمين!»[1].

وأنا أقول معهم: «آمين، آمين! اللهم آمين!».. وأصلى وأسلم على محمد رسول الله وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) نهاية الأرب ج ١٨.